لمن تنعق الغربان ؟

قصة بقلم عبد الفتاح الديدي

وصل قطاري الى دمياط في الحادية عشرة مساء . ولم اجرؤ على ان اذهب الى مقهى الحاج عويجة لرؤية الاصدقاء والزملاء في العمل. انهم يبقون في المقهى الى ساعة متأخرة . ورغم ذلك اسرعت بالعودة الى البيت . وآويت الى سريري وانا اقول لنفسي : « اغمض عينيك فقد تستريح من وعثاء السفر . » ولكن عيني لم تغمضا .. فالعيون لا تغمض بضم جفن الى جفن .. ان عيون الرؤية لا تلبث ان تستعيد صور اليوم باكمله .

ولكنني في اشد الحاجة الى النعاس والنوم العميق . اريد ان اترك جسمي يستريح . واريد ان تتوارى عن ذهني فكرة ملحاح . غدا سألقى رئيسي في المحكمة لاقدم له شرحا وافيا للمهمة التي اوكلها الي. ولعله من الافضل ان القاه يقظا متنبها وان اروي له كيف شعرت بدبيب المرض في بدني وعدت ادراجي قبل ان انهم المهمة .

انا اعلم بالتجربة ان النوم يصعب عادة بعد السفر وخاصة بعد قضاء يومين بليلتين كاملتين في ربوع القاهرة . حينما تنعكس الحياة صاخبة قوية فجاة على صفحة الشعر فانه يحتاج الى وقت طويل كي يعود من جديد الى هدوئه المستتب . واذا هاج البحر فجاة تحت تاثير عاصفة هوجاء استغرقت عودته الى الهدوء ساعات طوالا . ولا يحضرني الان سوى امثلة البحر . فانا اعيش بشارع الدحديرة في دمياط . وارى عيون الصيادين صباح كل يوم والمس فيها معنى التطلع والامل والانتظار . كأني احس بغرس السكين في قلبي كالبطيخة حينما اتأمل كل ما يمكن ان يرجوه هؤلاء الرجال .

لا يولد الالم الدفين لما نراه بل لما لا نراه . وانا امر كل صباح خلال شارع الدحديرة وانفذ الى النيل عن طريق شوارع ملتوية كالثعابين . وتحف هذه الشوارع من الجانبين بيوت تنبعث منها رائحة خاصة . وتقوم حوائط هذه البيوت كأنما نضم اسفنجا . وتظل صاعدة هابطة كأنها تحمي مخلوقات هلامية . ولكن الارض صلبة لا تستجيب لاي طرقات اقدام . تمثل الارض صخرية الانسان عند قسوته . او تمثل كل ما يمكن ان تسعى للاحتماء به والايواء اليه دون جدوى . تمثل ارضية الشوارع كل الاشياء الجامدة غير المصمتة . كثيرا ما كنت اضرب ارض الطريق بقدمي لتستجيب . واسائل نفسي احيانا : ولكن تستجيب لماذا ؟ لاي شيء تدعوها ؟ ولكنها لا تعبأ ولا تجيب على اي حال . طريق جامد موحش لا تسمع فيه الا طرق اخشاب الاثاثات التي يزف فيها القادرون على افراح العرس . ويتخلل ذلك من حين الى حين نداءات بائعي اللبن والزبد والسردين .

يا لك من مدينة ... مدينة اعدتها الطبيعة للشتاء والبرد ... وللعزلة . مدينة اقتطعتها الحياة من بطن الريف لتقذف بها الى سماء الشاعرية الرومانية . ولكنها استبقتها بغير نبيذ .. بغير دفء .. وذكرت قول مارتن لوثر : انني ها هنا لانني لا استطيع غير ذلك .. واعيش بين ربوع دمياط مرددا على الدوام كلمة مارتن لوثر . واجمل ما فيها جسر حديدي يعزل اكثر مما يوصل . ولا اقربه في الصباح الا لاستشعر باعماق الناس ورغباتهم . واحس بالالم لما لا اراه . احس بالالم يعتصر قلبي لما يتمناه فلان وفلان عند الخروج من اجل الرزق . ويمضي العمال من حولي حفاة في الطريق الى مصانع الجبن كأنما ينتظرون المخاض .. حي رقابهم عناء الرجاء . ويسرع الفلاحون ايضا الى ما لا اراه .

واهبط من بيتي عادة قبل الغروب لافف قريبا من الجسر . وتتمثل لي بقايا الاسماك الصغيرة الميتة المبعثرة مثل الجيف . انها فائض حاجات الصيادين . ولكن يقترن مرآها عندي بسماع نعيق الغربان . فارى الاسماك مبعثرة تشبه الموتى بغير قبور واصغي الى الغربان تنعق قرب الضفة الاخرى . وعندئذ فقط يفشعر بدني . وانظر الى دوران النيل جهة اليسار واتطلع نحو اوراق الشجر واصغي لعربات اليد وعربات النقل وزحام الناس قبل المغيب تحت صفرة الشمس والهواء ... ثم افيق وانا في طريقي للقاء زملائي من موظفي المحكمة في مقهى الحاج عويجة . وبين اصوات الجالسين وضجيج الطاولة ومباريات الشاء وصرخات المتسامرين تضيع كل رجفة وكل همسة الم ... كالجزع المستتر في اعماق الضمير .

سالقى رئيسي في الصباح . وساروي له ما حدث تماما . لم استطع مداومة الانتظار بمحكمة امبابة للقاء وكيل النيابة السابق بمحكمتنا . ساقول له انني شعرت بوعكة فلم املك الانتظار . وبالطبع لن تمر الدعوى بخطواتها القانونية الرسمية للحاجة الماسة الى شهادة من قام بتحقيق الحادث . لا بد ان نستعيد بعض جوانب الحادث لاتصاله المباشر بسير العمل في المحكمة ذاتها . وساعتذر لاني لم استطع البقاء بالقاهرة لحين لقاء وكيل نيابتنا الاسبق . وساشرح له ظروف مرض اعتدت التعرض له في الحر .

وانا متعب في الواقع .. اود لو انام .. قطعت عصر اليوم باكمله وامسيته في القطارات . وفقدت استمارة العودة الحكومية . لا ادري ما اذا كنت قد فقدتها فعلا ولكنني لم اجدها في جيوبي . واشتريت تذكرة من مصروفي الخاص . وحمدت الله لاني استبقيت مبلغا يكفي تذكرة العودة الى دمياط . واضطررت الى ركوب الدرجة الثالثة بالقطار توفيرا لبعض القروش . لقد اعتدت الا اركب الدرجة الثانية الا في السفريات الرسمية . واعرف تماما ما يعنيه السفر الى دمياط على مقعد الخشب . انه لا يرحم كثيرا ويذكرني بارض الشوارع في دمياط .

ونهبتني الدقائق داخل فراشي .. لم انم ولكنني لم اجرؤ على ان افتح عيني . لقد دمعت عيناي قليلا من اثر التثاؤب . ومسحت دموعي دون ان اباعد بين جفني . وكأنما انعكست بعض اضواء الطريق خلال زجاج المشربية العلوي على جفوني فجعلتني ارى الاحداث ملونة في خيالي .

وتذكرت في تلك اللحظة ذلك المنظر الذي شهدته عند خروجي من المحكمة في امبابة . كنت اتصور حتى تلك اللحظة ان الشيء المؤلم فعلا في الحياة يولد مع ما لا نراه . وكنت اتوقع ان تنمو الاحداث وان يرتبط نموها بتصور الالام . ورغم ذلك سقط في قلبي حينذاك ما لم اتبين صلته بالالم . لقد حدث انفصال بين احساسي الخاص وبين احساسي بالالم عندما وقعت عيناي على ما رأيت . فلم اتبين مشاعري على وجه الدقة . ولكنني وجدت نفسي اغادر المحكمة لاتجه الى المحطة مباشرة على قدمي . وتركت جلبابي على السرير الذي استأجرته للنوم في سيدنا الحسين .

ولم اطلب الى امي ان تحضر جلبابا اخر عند وصولي الى المنزل، انما آثرت النوم بملابسي الداخلية فقط وتركت الملاءة تغطي جسمي او بعض اطرافه على الاقل . ان بيتي هنا يتكون من غرفتين للنوم . وتنام في الغرفة المجاورة لي سيدتان احداهما امي وثانيهما زوجة خالي او امرأة خالي كما نقول . ولم ار خالي قط منذ ولدت ولم ار اية صورة من صوره.ولكن امي قالت لي ان هذه هي زوجة اخيها وتقوم بخدمتها وخدمتي معا . وانام انا في غرفتي هذه وبها كنبة عدا السرير الذي ارقد فيه . وتتحول غرفتي عادة الى غرفة استقبال اذا لزم الامر . ولسنا اغنياء بالحد الذي يسمح لنا باقتناء اثاث اخر . كل شيء قديم متماسك حتى مشاعري . ولا اتبادل احاديث كثيرة مع امي او امرأة خالي الا ساعات الاكل القصيرة . وغالبا ما انفرد بنفسي ساعة الاكل وابتلع اللقيمات ابتلاعا صامتا .

ولا ازال اخشى ان يهددني الارق حتى الصباح كما يحدث في كثير من الليالي . اود لو احظى ببعض لحظات النعاس . فلاقم بالعد حتى رقم المائة . ولكن لا اكاد ابدأ العد الى رقم عشرة حتى تتشعب بي الخيالات اكثر فاكثر . واخاف الليل مرة اخرى . ويقرصني الارق . ويحولني العد الى اعمدة التليفون الموازية للقطار فانكص على عقبي من جديد كرا نحو القاهرة . وارجع شارعا شارعا حتى ارى نفسي في امبابة . وتختلف كل المعالم في خاطري كي استعيد لحظاتي تلك .

لقد خرجت من باب المحكمة مسرعا عند الظهر تقريبا لالحق بالترولي واقف بين القاهريين المتزاحمين.ووقفت عند المحطة مع بقية الناس ثم انحرفت مبتعدا قليلا . واسترجعت كلمات المودة والملاطفة التي يتبادلها القاهريون : لا مؤاخذة ... متأسف ... حاضر يا افندم ... اتفضل ... انفضلي يا مدام . تأخذ هذه المعاملات هالة كبيرة في نفسي واحس بطعم القاهرة في خاطري مع ترداد هذه الكلمات . بل هي في نظري المدينة ذاتها التي اراها بمجرد رؤيتي تمثال رمسيس..

وانتظرت الترولي باس . اذ لم يصل مباشرة كما كنت اتوقع . لم اكن اطمع في سرعة الوصول الى مكان معين للقاء فتاة . بعد ليلتين كاملتين في القاهرة يشعر الانسان بالقلق اذا لم يصادف حلمه الذهبي او الفضي . وخاصة اذا كان من ابناء بلدتي . اما انا فقد اردت الوصول مبكرا لتناول الغداء من طعمية الحلوجي . انها تنفد بسرعة وعلى الهواة ان يطلبوها قبل الثالثة عصرا . الا ليتني كنت اسرع من اجل السير بعض لحظات الى جوار بنت من بنات القاهرة البارعات في الحديث والفكاهة ... ليتني كنت حقا على موعد مع بعض هؤلاء الناس الذين يملأون بيوت القاهرة وشوارعها .

وفجأة ترددت بعض كلمات في اذني من جهة اليمين . كنت افكر في هذا كله وانا في انتظار الترولي باس . وكانت عيناي تتطلعان الى وسط الطريق . اما هذا الصوت فقد انبعث في اذني من فوق الرصيف حيث كنت واقفا . كان يقول : اهذا هو الطريق الى العجوزة ؟ امن هنا اسير الى العجوزة ؟ ونظرت الى من يسألني فاذا به شيخ مسن . كان عمره لا يقل عن السبعين . ويلبس جلبابا وتملأ عينيه دموع تشبه بلل الحر على الوجوه . وكان حذاؤه بنيا متواضعا . ولم يحلق ذقنه منذ اسبوع على اقل تقدير .

وتطلع الرجل في وجهي وهو يسألني : هل اسير في هذا الشارع على طول الى العجوزة ؟ ورايته يحمل فتاة في الثانية عشرة من عمرها . وكانت تبكي حقيقة . وتأبط الرجل رجليها خلف ظهره وعلا وجهها رأسه . وقال الرجل مرة اخرى : العجوزة من هنا يا افندي ؟ وقلت له : نعم .. سر على طول في هذا الطريق حتى تقرب منها .

ومضى الرجل حاملا ابنته فوق ظهره . ولاحظت ساقي الفتاة محاطتين بمساند حديدية . واستغربت الا يركب الرجل اية مواصلة بابنته الى هناك . اتراه كان فقيرا الى ذلك الحد ؟ ولكن ماذا تراه سيفعل اذن بالعجوزة ؟ ايزور طبيبا ؟ ايأمل في شفاء ابنته بوسيلة او باخرى ؟ اتراه يبذل اكثر من حملها في هذه السن الكبيرة والبكاء من اجلها ؟ ولكن ماذا تراه يفعل من اجلها ومن اجل نفسه ؟ من ذا يتكفل بحمل ابنته على هذا النحو وهو لا يملك لنفسه او لها نفعا او ضرا ؟ وماذا يصنع هذا الرجل ؟ الى اين يذهب ؟

ولم ازد على ان ارشدته الى الطريق . وما كان في حاجة الى ارشاد . لان الطريق نفسه يمتد في حذاء النيل بلا حاجة الى سؤال وبما لا يدفع الى الخطأ . ولعله سألني من باب الرغبة في الكلام الى الناس والى اي انسان . مجرد احتكاك بالناس الذين يراهم ولا يعرف ما اذا كانوا مثله يعانون ويتكلمون . ولكن لماذا يحمل ابنته على هذا النحو ؟ لا شك انه يؤدي بالغريزة معنى من معاني الوفاء لشيء ما . انه يسعى الى حيث يظل قلبه امل في الشفاء . ولكن لماذا الشفاء ومن ذا يتولى علاجها او علاجه ؟ وكيف يضن على نفسه بالراحة من اجل ابنته القعيدة ؟

واشتد وقع افكاري فوجدت نفسي لا اطيق الوقوف . وسرت مثلهما في نفس الاتجاه ارمقهما عن بعد . وشعرت بالحموضة في معدتي وانا اسير متباطئا الى ان اظلتني الاشجار العالية . وكانت الارض شبه

صدر حديثا عن دار الاداب

دور العرب

في تكوين الفكر الأوروبي

بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي

يستعرض هذا الكتاب الهام اثر العرب في تكوين الحضارة الاوروبية في العصور الوسطى ، فيتحدث عن دور العرب في الشعر والفكر العلمي وتكوين الفلسفة والمعارف والموسيقى والمعمار في اوروبا ، ويلقي ضوءا جديدا على التأثير العربي العظيم في القرون الوسطى .

الثمن ٣٥٠ ق. ل

الأميرة والعشاق المعدمون

كما يقعد العاشق المعدم
ذليلا .. بعز الظهيره
يخط حروف المحبه
ويرسم قلبه
على الارض ، في ظل قصر الأميره
يصعد لوعته وضناه وحبه
لشرفتها .. علها تخطر
كطيف غلالته من ضياء .. ولفتته اعصر ،
يعيش لها العاشق المعدم
ذليلا ، على يقظة يحلم
لعل الاميرة يوما تراه
فيزهر في وهمه برعم !
ونحن .. كما المعدم
قعدنا اذلاء في صمتنا نحلم
ببغداد .. هذي الاميره
واحلامنا ترسم
لها شفة .. ويدا .. وضفيره
خلقنا لها من حنان جزيره

وصحنا : لتحيا الاميره !
ورحنا نسيل حنين الحناجر
وضوء المحاجر
ونفرش حين تمر الاميره
مسالكها بالبشائر
ونعدو ولا نسأم
ونعيا فلا نسأم
نغني .. ولكن هذي الاميره
تمر ولا تبتسم
ونبقى نغني فلا تفهم
نذوب ولا تعلم
وحين نناغي الامومة يفجأنا صمتها المعتم .
وعدنا كأنا مرايا صغيره
تنام بدولاب هذي الاميره
وتحلم ..
لكن بغداد تعبى
تنام ولا تحلم !

محمد سعيد الصكار

بيضاء من فضلات ابي قردان المتجمع في هذا الركن . واشتدت حركة المرور عند اقترابي من كوبرى الزمالك حيث علت الاصوات وامتلأ الجو بالدخان . وانحرفت يسارا ممسكا باسوار الكوبرى الحديدية كما لو كنت سأهوي الى الماء . واغرب ما صادفني حينذاك هو احساس مبهم بجاذبية الماء في قلب النيل . احسست كأن الماء يجتذبني اليه وخيل الي انني سأقفز من تلقاء نفسي الى اعماق النيل . وتمالكت نفسي لكي استمر في السير . ولم ادع اسوار الكوبرى تفلت من يدي. كأنما سيبتلعني النيل ما لم امسك بشيء اقبض عليه بيدي . ففقدت السيطرة على جميع مشاعري وبقي لي احساس واحد بجاذبية مياه النيل الجارية تحت الكوبرى . وكأنني سأهم بالقاء نفسي من هذا الارتفاع الشاهق .

وتثاءبت مرة اخرى واستدرت في السرير وجعلت وجهي الى الحائط وشددت الغطاء فوقي . ودمعت عيناي مرة اخرى وانا اتثاءب. ولكني آثرت الا افتحهما . ان قدرة الجفون على الالتصاق تضعف كلما ادمعت العيون . ورغم ذلك لم افتح عيني . ولم يخطر على بالي ان انهض وان انير الغرفة . وعدت اتصور نفسي وانا اهرع من فوق الكوبرى عدوا الى قرب المسجد . وسرت خطوة خطوة على قدمي حتى باب الحديد ووصلت الى دمياط في اول قطار .

وسيسألني رئيسي في الصباح عما فعلته بالقاهرة . وساخبره انني لم اقم بالمهمة . وساعتذر ببعض الاسباب . ولكنه لن يعرف انني احسست فجاة عند مرأى الرجل العجوز وابنته انني احمل في قلبي حجرا من احجار شوارع دمياط الصلدة . شعرت بان صخرة في قلبي تشبه قارعة الطريق في دمياط .. لا تستجيب ولا تجيب .. واشتقت لسماع نعيق الغربان .

دمياط

عبد الفتاح الديدي